دکتر صلاح‌الصاوی

گروه زبان و ادبیات عربی

مقدمة ثانية

استاد صلاح صاوی اخیراً کتابی در نقد ادبی تطبیقی بنام «قطاع فی تیارالتفاعل بین‌الادبین‌الفارسی والعربی» نوشته‌اند. که نمایانگر تأثیر شاهنامهٔ فردوسی برمقامات بدیع‌الزمان همدانی است .

نویسنده دراین کتاب ارزشمندکه درنوع خود اولین کتاب در زمینه نقد تطبیقی بین دو زبان فارسی وعربی است ثابت کرده‌اندکه بدیع‌الزمان‌همدانی درمقامهٔ‌بشریه از داستان رستم‌وسهراب استفاده واقتباس نموده‌است. همچنین درهمین مقامه داستان رستم واسفندیار را نیز مورد استفاده قرار داده است.

این کتاب دارای دومقدمه است: مقدمه اول یك مقدمه کلی است، و مقدمه دوم دربارهٔ نقد ادبی. با اینکه کتاب هنوز درمرحلهٔ دست نویسی است ولی‌از استاد خواهش کردیم که یکی از دومقدمه مذکور را برای چاپ‌بمجله بفرستند. واینك مقدمهٔ دوم کتاب بخوانندگان گرامی تقدیم میگردد.

«ان الفن تولد من حاجة الانسان للتعبیر عما یقصر عنه‌العلم و یتخلف عنه‌الادراك العقلی؛ بحیث ینفذالانسان ممایری فی‌حدقة البصر الی‌ما یتراءی فی‌حدقة النفس ، و ممایسمع أویلمس الی‌تلك الحقائق التی لاشکل ولامادة لها ، والتی تتضوع فی ارجاء النفس صامتة متکلمة منظورة وغیر منظورة، وتحیاحیاتها فی‌الوجدان والخیال ؛ حتی‌اذا قبض علیها العقل تبارح و تزول کالسراب او کالطیف . فالفن لیس تعبیرا عمایعیه الانسان و انما هوتعبیر عما حول الوعی اوفوقه او وراءه، لایجسد مایشخص فی‌النور بل مایشخص فی‌الظلمة ،لاینقل

الخطوط بل الظلال ، ولايعنى بالاشياء بل برموزها والصوفية الغامضة المضمرة التى تغلفها ، دون أن يوضحها ايضاحا أو يقررها تقريرا»[۱۴]

أما وظيفة الفن فهى «التعبير عن شعور تعبيرا ينقل مفهوما»[۱۵] تلك هى طبيعة الفن وأبعاده، وهذه هى وظيفته فماهو موقف الدارس اذاً من فن الادب.

نشاهد أن الدارسين يقسمون الدراسة عادة الى ثلاثة مناطق رابعها ينطوى تحت أولها. فيقولون: ان الدارس لابدله من دراسة أحد أمرين: اما أن يدرس نصاً خاصا بعينه، واما أن يدرس الادب عامة كما تتجلى حقيقته فى صورها جميعا، أو فى مجموع النصوص عند مختلف الامم. فاذا وصف دارس النص بأن حققه و درس ما حوله من عوامل البيئة والشخصية وعوامل الايحاء، أى حقق الصلة بينه وبين منتجه وبينه وبين ظروف الحياة من حوله ، كان كل هذا «تأريخ أدب». فاذا حكم على النص حكما، أى اذا وصف انفعاله به فطبق بعض الموازين عليه، أو جال فى فيافى الحياة والفن من خلال هذا النص، على حد تعبير «أناتول فرانس» فى تعريفه للنقد، فكل هذا حكم؛ ولعله تعليل للانفعال ليس الا؛ اذ الحكم فى حد ذاته تافه لاقيمة له الابحيثياته، أى بانطباقه على موازين نقدية عامة أوموازين ذوقية ممتازة ، فكل هذا «نقد أدبى صرف» أو بتعبير آخر: النقد الادبى هو التحليل والممارسة النشيطة فى تغيير مجالنا والملاحة المعقدة، ملاحة هى فى الحقيقة فن معرفة أين نكون حيثما نذهب كمسافرين فى رحلة ذهنية. ان الادب فى ذاته نمط من الاتصال او الايصال على الاصح . فما يوصله و كيفية ايصاله وقيمة ما يوصلة هى المادة الموضوعية للنقد. ثم يتبع ذلك أن النقد فى حد ذاته الى حد كبير جدا وان لم يكن كلية هو فن ممارسة هذه الملاحة الذهنية.

أما اذا وصف الدارس الادب عامة مبيناكنهه وحقيقته وصفاته وآثاره، فقد خرج وصفه هذا الى ما نسميه «نظريات الفن الادبى» . فاذاحاول أن يحكم على هذا العام، لم يستطع دون الاستعانة بالنص أو دون الارتداد الى الوصف؛

لانه لايستطيع أن ينفعل فيحكم على انفعاله من حقيقة الادب وحدها دون النصوص ومن ثم انعدم القسم الرابع من ميدان التقسيم، وأصبحنا نرى نصاً وحقيقة أدب، وكلاهما يوصفان فينتجان قسمين؛ و أحدهما يؤثر و يحدث فى نفس الدارس انفعالا يكون مادة للحكم، بينما الاخر لايمكن أن يوحى بحكم. و بهذا ينتج عندنا من ناحية الحكم قسم واحد ليس غير.[٣] و هوما يختص بالملاحة النقدية.

وعليه فالمقارنات التى ألمعنا اليها فى المقدمة الاولى ، لاتمت للدراسة النقدية بأى سبب و ان كانت تفيد فائدة عامة لايمكن تحديدها ؛ كأن تفيد فى دراسة طبيعة بعض الافكار ،أو مجموعات من الافكار بعينها؛ أو بعض الموضوعات بالذات وهذا، لان النقد ليس تقريرا وانما هو تحليل، وليس تفسيرا لمايقع فى حدود وعى الاديب. فحسب، بقدرما هو ادراك لمايقع فى لاشعور الاديب؛ انه محاولة لمعانقة التجربة الفنية أو الادبية فى ضمير صاحبها و الحلول فيها و استكشاف أبعادها الفنية والانسانية أيضا والناقد لايريد أن يعرف مايشترك فيه الاديب مع سواه بقدرما هو معنى بما ينفرد به، والنفاذ مماقيل الى مالم يقل. أما البقاء فى حدود الشكل والاطار الخارجى والاقتصار على المباحث اللفظية والبلاغية وما الى ذلك، فلايتعدى فى أكمل صوره من اتباع الدراسة المنهجية تناول جانب الاسلوب العام الذى تتم خلاله العملية الفنية ؛ ولا يميط اللثام عما يكمن وراء الشكل من أجواء النفس وطاقاتها وتفتحاتها للوحى وما يعتريها من قبض و بسط اثناء المعاناة . فوقوع الشركة فى بعض الصور على المستوى الظاهرى للعمل الادبى، لايدل على وقوعها فى المعانى؛ و وقوعها فى المعانى لايدل على اشتراك فى العاطفة او المحرك الاول لها. هذا، لان أجواء النفس و تلقيها للوحى وحضانتها له، لايمكن أن تتفق من أديب لآخر، حتى لو اتحد المثير الاول للعاطفة. ولذلك فان هذه المقارنات على ظرافتها وما يمكن ان تفيد منشىء الادب من فائدة، تظل بعيدة عن ميدان النقد الادبى.

فالفن لقطة عدسية لرؤيا تتجلى فى حالة انخلاع من الرتابة والجمود

الظاهری و تلبس بالحقیقة فی حرکتها الجوهریة الدائمة المقنعة بالواقع الملموس فالسحاب لا یمسکه حال لحظة ما و النفس کذلك فی تحول دائم و الصور و الاعراض تردعلی حقائق الوجود بطور تعاقب استمراری و لیس فوق لبس مع تتالی الآنات ان الفن لحظة و تجل؛ واللحظة لاتدوم ولاتتجدد بعینها دون أن تفقد الکثیر من شروطها وملابساتها بین القبض والبسط، والتجلی لایتکرر ولایدوم بین الخلع واللبس و کل اثر لاتترفرفیه لحظة الانفعال أویستکمل أبعاده فی حالة التجلی یخرج من دائرة بحثنا الی مستوی آخر وقیمة أدبیة ادنی.

نحن فی حاجة الی دراسة نقدیة مقارنه بالمعنی الاصطلاحی. فدراسة الادب المقارن، الدراسة الحق، التی تترسم الاصول العلمیة والفنیة، هی التی یمکن أن تؤثر فی النظریات النقدیة، وبالتالی هی التی یمکن أن تدخل فی نطاق النقد الادبی؛ فهی التی تعطینا ثمرة التجربة فی أحکام عامة. و ذلك أن الادب المقارن فیما عرفه من أنشأوه ؛ « ماهو الا احتکاك الاداب العالمیة بعضها ببعض وماینشأ عن هذا الاحتکاك من ظواهر تقود الی احکام عامة، أی نظریات أوشبه قواعد»[۱۹] وغنی عن البیان أن الاحتکاك الفعال بین الادبین الفارسی و العربی واقع تاریخی متماد فی الزمان مطمئن فی رحیب المکان کما سبق أن أشرنا.

فثمة، لایکفی أن یقضی مسعود سعد سلمان مثلا حیاته فی السجن و أن یحبس المعتمد بن عباد أو ابو فراس الحمدانی، لیتوفر لدارس النقد المقارن موضوع ممتاز للبحث. فمقارنة حبسیات مسعود سعد سلمان الفارسیة بماقاله المعتمد أو ابو فراس من شعر بالعربیة فی موضوع بعینه هو «الحبس»، مقارنة و ان کانت طریفة، وقدتؤدی الی تأملات فنیة، الا انها بدون شك لن تؤدی الی شیء علمی أونقدی فی باب الادب المقارن. ذلك لان کلا منهم لم یر الاخر، ولم یطلع علی حبسیاته، ولاکانت ظروف هذه الحبسیات مماثلة لظروف تلك؛ وماکان یمکن أن تکون کذلك. انها قد تفید بصفة غامضة بعض الفروض والترجیحات التی قد یصل الیها مقارن هذه الحبسیات المشار الیها فیما یملیه موضوع بعینه من

الموضوعات، هو «الحبس» على النفس الانسانية عامة ؛ الا أن هذا بدوره يعود فيغمض غموض الادب نفسه. وهل يفيد دارس المعلقات مثلا اذا قلت له: ان الوقوف على الاطلال عادة مايستدعى البكاء على زمن مضى ؟ أوليس هذا هو الموضوع العام لما فى النص الذى أمامه ؟ وليس من الشاق فى دراسته النقدية أن يدل عليه ؛ وانما الشاق فى موضوعه ، هو أن يدل على أنه كيف خرجت القصيدة على هذا النحو بالذات . وما الفرق بين ذلك و بين أن تقول له ان الحبس عادة ما يستدعى البكاء و يلهب الحنين الى الاهل والاحباب وما الى ذلك من أثر على النفس الانسانية ؟ !

نعم ، ليس يكفى أن يقف خاقانى الفارسى و البحترى العربى امام ايوان كسرى فى المدائن، حتى يو فر ذلك مادة للنقد المقارن، دون أن يكون بين الشاعرين من الفعل والا نفعال أولا حتكاك مابين سعدى و المتنبى أو بين ابن عربى وجامى أوعراقى فالادب المقارن كما اسلفنا دراسة للاحتكاك بين الآداب . و غنى عن البيان ان الاحتكاك لايتم الا اذا حصل اتصال مثبوت له واقع تاريخى معلوم .

ولمزيد من البيان نورد المثالين اللذين أوردتهما الدكتورة سهير القلماوى للتطبيق على هذا المبدأ . قالت :

« اننا فى در استنا للشاعر الانجليزى بليك «W. Blake» مثلا لنرى مبلغ تأثر شاعر كجبران خليل جبران به ، يتوفر لدنيا موضوع للادب المقارن . ذلك لان المستندات التاريخية عندنا تقول ان جبران اتخذ هذا الشاعر لنفسه مثلا أعلى يحتذيه. و كلام جبران شاهد على أنه قرأ « بليك » و تأثر به وذكره فيما كتب من نثر وشعر . لقد كان «بليك» رساما وشاعرا، وكان جبران ايضا رساما و شاعرا. وذهب جبران الى باريس و عرف الرسام الشهير «رودان» و أخذ عنه . ومثله «رودان» «ببليك» وسماه باسمه. فتأثر بالتسمية و عكف على در اسة هذا الشاعر . فما ذا من بليك عند جبران ؟ و ماذا عند جبران مما

لم يتأثر به سائر من تأثروا ببليك ؟ و الى أى سبب يعود هذا التأثر ؟ وبأى العوامل تكيف ؟ و أخيرا يأتى الهدف الاكبر و هو . هل استطيع من هذا أن أجد الميزة الكبرى فى أدب بليك او أدب عصره او أدب أمته . التى نجدلها امتدادا فى أدب جبران أو أدب عصره أوطائفته او أمته ؟

وكذلك الحال أيضا فى عقد المقارنة بين مسرحية « مصرع كليوباترا » التى ألفها شوقى وبين مسرحية «انطونيوس وكليو بطرا» التى ألفها شكسپير . فالثابت بالمستندات التاريخية ان شوقى تأثر بهذه المسرحية»

وعليه، فكل موضوع تسعفنا النصوص التاريخية فنستطيع ان نضع أيدينا على مايحقق شرط الاحتكاك يكون مجالا لدرس أدبى مقارن و بالتالى يأتى النقدالمقارن بفائدة فيمايسمى الاحكام على جملة النصوص او الوصف لها، أى النظريات النقدية .

و فى هذا البحث سنعرض أثرا أدبيا ، انتقل بكامله من الفارسية الى العربية حيث اتخذ شكلا جديدا. وذلك هوالملحمة الحماسية «رستم وسهراب » للشاعر العظيم ابى القاسم الفردوسى . التى نقلها الأديب المبدع بديع الزمان الهمذانى فى صورة «المقامة البشرية». وسنبين الى أى حد تأثر البديع بالفردوسى وكيف استفادمن افكاره بصورة اوسع من هذه الملحمة. حتى لقد كانت المقامة البشرية معرضا لأكثر من ملحمة واحدة، و حتى اننى لاأجد حرجافى القول بأن الهمذانى كان فى اخريات حياته قدأقبل على الشاهنامة وموضوعاتها بشهية متفتحة ؛ فمثل بذلك نقطة من نقاط الاحتكاك و كان بمثابة «مماس» بين الادبين الفارسى والعربى ؛ كان من الممكن ان يتسع قدرسعة الشاهنامة ، لولا أن الاجل عاجله .

هذا، ويحلو لى قبل الدخول الى الموضوع، أن أضع هذا المعيار بينى و بين القارى الكريم ملاكا للمحاولة وتحديداً للاطار الذى سنتحرك فيه بالعمل النقدى، فما أعوص مهمة الناقد ؛ وذلك ماقاله ناقد حديث من أن « النص

الادبى كالبلد العجيب الذى نود زيارته ، ويسرنا ان نسمع عنه الاخبار و أن نعرف عنه المعلومات . و لكن ممايفسد علينا التجربة أوالمتعة بزيارته ، ان نتلقى فى شأنه أحكاما . والنا قد . كالدليل لهذا البلد العجيب، من مهمته أن يدل أويشير وأن يرينا مايجب أن نرى؛ ولكنه يحب ان يكون حذراكل الحذر فى اصدار الاحكام . فلعل اكثر مايفسد علينا متعة التأثر الحر بالنص الادبى ، أن نتلقى فى شأنه أحكاماقبل أن نواجهه. ان لذة المشاركة فى الحكم لاتعدلها لذةوالقارى يحب ان يتمتع بلذة المشاركة فى الحكم . »[٤]

المراجع

١ ـ الحاوى، ايليا ـ نماذج فى النقدالادبى.
٢ ـ تعاريف الفن كثيرة و هذا أحدالتصاريف المعتبرة و أقربهاالى الحقيقة.
٣ـ القلماوى، سهير محاضرات معهدالدراسات العربية.
٤ـ المرجع السابق.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی